الباب الأول

الحياء بين
الإيمان ومكارم الأخلاق

الفصل الأول : الحياءُ والإيمانُ

الفصل الثاني : الحياءُ والعقل والأدب

الفصل الأول

الحياءُ والإيمان

الحياءُ وما أدراكَ ما الحياءُ ؟!

ـ الحيـاءُ زينـةُ الفضـائـلِ ، وذِروةُ المكـارمِ ، وتـاجُ المحاسنِ ، ولباسُ التقوىٰ ، وفوقَ هذا كلّه فهو منَ الإيمان .

ـ نعم ؛ الحياءُ من الإيمانِ ، والمؤمنُ في الجنَّةِ ، والحياءُ مرتبطٌ بالإيمانِ بحبل متين ؛ فإذا لزمَ المرءُ الحياءَ كانتْ أسبابُ الخير فيه موجودة ، لأنَّ الحياءَ هو الحائلُ بينَ المرءِ ، وبينَ المزجوراتِ جميعها ، فبقُوّة الحياء يضعفُ ارتكابه إيّاها ؛ وبضعفِ الحياءِ تقوىٰ مباشرتُه إيّاها .

ـ فالإيمانُ والحياءُ كالرُّوح والجسد ، لا يستغني أحدُهما عنِ الآخر ، وإذا ما خرجتِ الرُّوح منَ الجسد ، لم يُنْتَفَعْ به .

ـ إنَّ المؤمنَ لا غنىٰ له عن هذهِ الحِلية التي تتوّج أخلاقَه ، وتعطّرُ سلوكه ، وتنيرُ دربه ، وتجعله في مصَافِّ الفائزين ، فإذا كانَ الحياءُ في الإنسانِ كانَ معه الخير ، ومَنْ كان معه الخيرُ نجا وفازَ .

ـ وقد عدَّ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ الإيمانَ والحياءَ صنوان ، فعن عبدِ الله بنِ عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ النبي ﷺ قال : « الحياءُ والإيمانُ قرناء جميعاً ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر »[1] .

ـ ولعلَّ سائلاً يسأل : ما وجْهُ الارتباطِ بينَ الإيمانِ والحياءِ ، حتىٰ يكونَ رفعُ أحدهما مستلزماً رفعَ الآخر ؟!

ـ وفي الإجابةِ عنْ هذا السُّؤالِ نقولُ : إنَّ مِنْ كلامِ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّ الحياءَ منَ الإيمانِ ، ومتىٰ علِمْنا أنَّه منَ الإيمانِ في السُّلوك النَّفسي والفعلي للإنسانِ ، عرفْنا أنَّ الإيمانَ لا يتجزأُ عنِ الحياءِ ، وعلمنا أنَّه متىٰ رُفِعَ الحياءُ رُفِعَ الإيمانُ ، لأنَّ

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٢٢) ؛ وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٩٧) .

الحياءَ جزءٌ ملازمٌ للإيمانِ ، الصَّحيح الصَّادقِ ، وهو لا ينفكُّ عنه ، فعدَمُ وجودِ الحياءِ دليلٌ علىٰ عدمِ وجودِ الإيمان .

ـ فالحياءُ يمنعُ الإنسانَ منَ المعاصي مع الإيمانِ الذي يرافقُه الخوفُ منَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، لذلكَ كانَ منَ الطبيعي ألاّ يُوجدَ الحياءُ متىٰ رُفِعَ الإيمان ؛ وبهذا يظهرُ لنا سِرُّ الارتباطِ والتّلازم بين الحياءِ والإيمان في ظلِّ الإسلام .

ـ ولقد جعل سيِّدُ أهلِ الحياءِ حبيبنا محمدٌ ﷺ الحياءَ من الإيمانِ ، كما جاءَ في الصّحيح والسُّننِ فيما أخرجَه صاحِبا الصّحيحين عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ، أنَّ النبي ﷺ مرَّ علىٰ رجُلٍ وهو يعاتبُ أخاهُ في الحياءِ ، يقول : إنَّك لتستحيي ، كأنَّه يقول : قد أضرَّ بك ؛ فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « دَعْه ، فإنَّ الحياءَ منَ الإيمان »[1] .

ـ وكما قرأنا في الحديثِ السّابق بأنَّ الحياءَ منَ الإيمانِ ،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦١١٨) ؛ ومسلم برقم (٣٦) ، وأحمد (٩/٢) ، وأبو داود برقم (٤٧٩٥) ، والترمذي برقم (٢٦١٥) ، والنسائي (١٢١/٨) ، وابن ماجه (٥٨) .

نتعرّفُ أيضاً بأنَّ له صِلَةً وثيقةً بالإيمانِ ، إذْ هو شعبةٌ منْ شُعَبِهِ ، كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة قال النبي ﷺ : « الحياءُ شعبة من الإيمان »[1] .

ـ وبهذا كانَ للحياءِ منزلةٌ عظمىٰ منَ الإيمانِ ، إذ الإيمانُ تصديقُ القلبِ ، وإقرارُه ، ومعرفتهُ ، ولهذا كانَ النبيُّ ﷺ يقولُ في دعائه إذا صلّىٰ علىٰ الميّت : « اللَّهُمَّ مَنْ أحييته مِنّا ، فأحيهِ علىٰ الإسلامِ ، ومنْ توفيتهُ منا ، فتوفّه على الإيمان »[2] . فعندئذ لا يبقىٰ غير التصديق بالقلب .

ـ ويدخلُ في مسمّىٰ الإيمان وجَلُ القلوبِ منْ ذِكرِ اللهِ ، وخشوعُها عندَ سماعِ ذِكرِهِ وكتابهِ ، وخوفُ اللهِ سرّاً وعلانيةً ، والرّضا باللهِ ربّاً ، وبالإسلام دِيناً ، وبمحمدٍ ﷺ رسولاً ، واستشعارُ قربِ اللهِ دائماً ، ودوامُ استحضاره ، وحسنُ

---

(١) رواه البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) ، والنسائي (٨/ ١١٠) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٨) ، وأبو داود (٣٢٠١) ، والترمذي (١٠٢٤) ، وابن ماجه (١٤٩٨) .

الخُلُقِ ، وكلُّ فضائلِ المكارمِ منْ أقوال وأفعال ؛ وهذه المسمياتُ كلُّها في الذروةِ العُليا في عالَم الإيمانِ ، فكيف إذا ارتبطت بالحياء ؟!

- إنَّ الحياءَ يدفعُ المرءَ إلىٰ التّحلي بكل جميل محبوب ، والتخلّي عنْ كلِّ قبيح مكروه ، والجمالُ منَ الكمال ومن الإيمان ، والقبحُ منَ النُّقصان ومنَ الخسران .

- إنَّ جمالَ الخصالِ والأفعالِ أسمىٰ من جمال الرسومِ والأشكالِ ، لذلك حثَّ الإسلام على التحلي بخلُق الحياء ، لأنَّه منَ الإيمان .

- فالحياءُ إذاً ذو منزلةٍ عظيمة في عالم الإيمان ، وهو فضيلة لا تدانيها فضيلة ، إذ هو جماعُ كلِّ خير ، لأنَّ المؤمنَ الحييَّ قد ذاقَ طعمَ الإيمان ، فاتّخذ الحياءَ لباساً يتحلّىٰ ويتجمل به في أموره كلّها ؛ كما أن الحياء من مكارمِ الأخلاق وآدابها ، وقد جعلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مكارمَ الأخلاق ومحاسنها وصْلاً بينه وبينهم ، وحَسْبُ المؤمنِ أنْ يتّصلَ من اللهِ بخُلقٍ منها ، وما أجملَ أن نتّصل بخالقنا بحبْلِ الحياء . . !!

الفصل الثاني

الحياءُ والعقلُ والأدبُ

ـ الحياءُ من الأخلاق والآداب النّبيلةِ المأثورةِ عن الأنبياء المتقدمين ، وقد تداولَه النَّاسُ بينهم جيلاً بعد جيل ، وتوارثوه عنهم قرناً بعد قرن ، والنّبواتُ المتقدّمة جاءتْ به ، وأقرّه العقل ؛ وقد جاء في الصحيحِ وغيرِهِ عنْ أبي مسعود البدري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ ممّا أدركَ النَّاسُ من كلام النبوة الأولىٰ : إذا لم تستحي ، فاصنعْ ما شئت »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء برقم (٣٤٨٣) و (٣٤٨٤) ، وفي الأدب برقم (٦١٢٠) ، وأحمد (٢/ ١٢١ و ١٢٢) و (٥/ ٢٧٣) ، وأبو داود في الأدب =

ـ وقوله : « إذا لم تستحي فاصنعْ ما شئت » ؛ معناه : إذا لم يكن لك حياءٌ فاعمل ما شئتَ ، فإنَّ اللهَ يجازيك عليه ؛ أو : إنَّ منْ لم يستحي صنع ما شاء ، فإنَّ المانعَ من فعل القبائح هو الحياءُ ، فمن لم يكن له حياء ، انهمك في كل فحشاء ومنكر ، وعندها يغيب عنه ميزان العقلِ الذي يزِنُ الفضائل بميزان الحكمة ، لأنَّ الحياءَ أصلُ العقلِ وأساسه وجذره .

ـ قالَ ابنُ حبّان البُستي ـ رحمه الله ـ : الواجبُ علىٰ العاقلِ لزوم الحياء ، لأنَّه أصلُ العقلِ ، وبذرُ الخير ، وتركهُ أصلُ الجهل ، وبذر الشرِّ ، والحياء يدلُّ علىٰ العقل ، كما أنَّ عدمَهُ دالٌّ علىٰ الجهلِ ، ومَنْ لم يُنْصف النّاس منه حياؤه ، لم ينصفه منهم قِحَتُه[1] ؛ ولقد أحسنَ الذي يقول :

= برقم (٤٧٩٧) ، وابن ماجه في الزهد برقم (٤١٨٣) ، وانظر : حلية الأولياء (٤/ ٣٧١) ، وتاريخ بغداد (٢/ ١٣٥و١٣٦) .

(١) انظر روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص ٨٥) .

وليسَ بمنسوبٍ إلىٰ العلمِ والنُّهىٰ فتىً لا تُرىٰ فيهِ خلائقُ أربعُ
فواحدةٌ تقوىٰ الإلهِ التي بها يُنال جسيمُ الخيرِ والفَضْلِ أجمعُ
وثانيةٌ صدقُ الحياءِ فإنَّه طباعٌ عليهِ ذو المروءةِ يطبعُ
وثالثةٌ حلمٌ إذا الجهلُ أطلعتْ إليهِ خبايا من فجورٍ تسرَّعُ
ورابعةٌ جودٌ بملكِ يمينه إذا نابَهُ الحقُّ الذي ليس يُدفعُ

ـ نعم يجبُ علىٰ المرءِ أنْ يكونَ حييّاً ، فإنَّه سجيةٌ وخلقُ وأدبُ أهلِ العقل والمروءة[1] ، وقد حضَّ الفُضلاء علىٰ اختيار الحيي العاقل ، وجعلوا عنوانَ الصَّداقةِ الحياء والعقل ، وفي هذا يقول أحدهم يدعو إلىٰ اتخاذِ الخليلِ العاقل صاحبِ الحياء :

إذا ما كنتَ متخذاً خليلاً فلا تثقن بكلّ أخي إخاء
فإنْ خُيّرتَ بينهمُ فألصقْ بأهْلِ العقلِ منهم والحياء

---

(١) وفي تحقيقِ هذا المعنىٰ يقول محمد بنُ حازم :
وإنّي ليثنيني عنِ الجهلِ والخنا وشتم ذوي القربىٰ خلائقُ أربعُ
حياءٌ وإسلامٌ وتقوىٰ وأنني كريمٌ ومثلي قد يضرُّ وينفعُ

ـ إذاً ، فالواجب علىٰ العاقلِ أنْ يعوِّدَ نفسَه لزومَ الحياء مـنَ الله ، ومـنَ النـاس ، وأن يتعـوّدَ ركـوبَ الخصـال المحمودة ، ويجانبَ الخلال المذمومة ، كما أنَّ من أعظم بركاتِ الحياء ويُمْنِهِ الفوزَ بالجنَّة بلزومِ الحياء ، وذلك عند مجانبة ما نهىٰ الله عنه ، فإذا قوي حياؤه ، دلَّ علىٰ وفور عقله ، واستقامة تفكيره .

ـ وللحيـاءِ مكـارمُ كثيـرةٌ ، ومحـاسـنُ عـديـدةٌ إذا قُـرن بالعقل ، منها نَشْرُ المحاسن ، وإذا غاب الحياء غابت الفضائل كلها ، وغدا المرءُ لا خيرَ فيه .

ـ قال ابن حبان البستي ـ رحمه الله ـ : إنَّ المرءَ إذا اشتدَّ حياؤه صانَ عرضه ، ودفن مساويه ، ونشر محاسنه ، ومَنْ ذهبَ حياؤه ذهبَ سروره ، ومَنْ حزنَ فَقَدَ عقْله ، ومَنْ أُصيب في عَقْله كان أكثر قوله عليه لا له ، ولا دواء لمن لا حياء له ، ولا حياءَ لمن لا وفاء له ، ولا وفاء لمن لا إخاء له ، ومَنْ قلَّ حياؤه ، صنعَ ما شاء ، وقالَ ما أحبّ[1] .

---

(١) انظر : روضة العقلاء (ص ٨٩) .

ـ ويجمعُ هذهِ المعاني كلّها قول الشاعر :

إذا لم تَصُنْ عِرضاً ولم تخشَ خالقاً وتستحي مخلوقاً فما شئتَ فاصنع

إذا كنتَ تأتي المرءَ تعظمُ حقَّه ويجهلُ منك الحقَّ فالصّرم أوسع

* * *